الانحزاب وشكله

انا وأع البلد منذ ستين سنة بالأقل وكنت دائما اقرأ اننا في حاجة الى أحزاب تنقلنا من الطائفية الى ذلك المجتمع المدني الذي يعني ان لا شيء يتوسط بين المواطن والوطن كلا والدولة راعية للوطن. ما كنا نشهده قبل هذه الدعوة أحزاب بعضها ينتمي اعضاؤه الى المسيحية أو الى الاسلام وقيل ان تجاوز هذا الوضع يكون باحتواء الحزب محازبين من كل الطوائف. عندي ان المشكلة ليست هنا. المشكلة هي في لبنانية الحزب. فاللبنانية كانت الى وقت قريب دعوة في الاوساط المسيحية – ما قلت دعوة مسيحية – وفي طليعتها الموارنة. لبنانية الحزب في زعمي تعني شيئا أول ان يكون لبنان وطنك النهائي وهذا بصرف النظر عن الدستور الحالي. فمارونية الكتائب لا تخرجها عن لبنائيتها لأن شموتها لبنان ولو كان يقام حتى وقت قريب تماه بين المارونية والوطن. ففي البدايات طلب الموارنة لبنان مستقلاً عن الداخل السوري. أن استباقهم دعوة الطائف الى الاكتفاء بلبنان لا يجعلهم حزبا خارجا عن كلية المجتمع اللبناني ولو ذاقوا سيكولوجيا انكفاء الى الجزئية. عمقيا كانوا في الكلية.

كذلك الحزب الاشتراكي ولو كان حزبا أكثره درزي لم يخرج أيضا عن الكلية اللبنانية. الدعوة العربية التي اعتنقها وتأتي على لسان قيادته جعلته في صميم الطائف قبل انعقاده لكون الطائف كرس الانتماء العربي. في نمذجة الانحزاب الاشتراكيون والكتائبيون في منحى واحد. لبنانيون ولو تياسر حزب وتيامن حزب.

في الواقع المعيش انكفأت الاحزاب العروبية. لذلك أعبر عنها. لكن الحزب الشيوعي صار لبنانيا صرفا من بعد سقوط الاتحاد السوفياتي واندثار الاممية التي ارتبط بها. يبقى الحزب السوري القومي الاجتماعي الذي لا يعترف بنهائية لبنان وهذا في صميم مبادئه. سوريا الكبرى أو الطبيعية أو التاريخية هي اساس الدعوة عنده فكيف يقبل الطائف من زاوية نهائية لبنان؟ اما القول بالقومية السورية فيمكن ان نفهمه قولاً تاريخياً وحضارياً ويمكن تصور غير كيان واحد ضمن هذه القومية. فهل من امكان للقول بالانتماء السوري الحضاري والانتماء اللبناني "القطري" لنقول ان هذا الحزب منسجم قولاً وفعلاً مع الدستور؟ وقد لا يهم الحزب ان ينسجم مع كل جزئيات الدستور. وفي النهاية الدستور ايضا قانون وضعي.

أما "حزب الله" فيمتد الى لبنان فقط ومن هذه الناحية هو لبناني. ولا شيء عندي يمنع مبدئيا ان يكون قد انبثق من تجربة تمت خارج بلدنا واستوحاها. غير ان المشكلة هي انه يحصر الحكم استراتيجيا بالمسلمين وفي المسيرة التاريخية الواقعية بالشيعة خصوصاً ان فلسفة الحكم عند الشيعة تختلف عن فلسفة السنة. قد يقول الحزب انه لن يحكم الا اذا جيء به ديموقراطياً. غير ان الديموقراطية ليست وسيلة الى الحكم فحسب. هي ممارسة الحكم الذي يعني في فهمنا الحديث تداول الحكم واباحة الاحزاب التي قد تتغلب على "حزب الله" لو حكم. المنطق الشرعي عند "حزب الله" يقوده الى ان يكون الحزب الواحد. هذا اذا لم نتعرض لكل المقولة الاسلامية من أساسها بما هي دين ودولة. الديموقراطية مستحيلة بلا تكافؤ الفرص في الوصول الى الحكم. هي تتنافى طبيعيا وأي تماه بين حكم ما ودين لان هذا يحول دون تداول السلطة. هذا الى جانب انه من العسير جداً ان تكون منتميا في آن معا الى الاسلام كتلة والى دار العرب كتلة على رغم المحاولة الحديثة في التوفيق بينهما.

* * *

القائلون بضرورة الاحزاب لنهضتنا الوطنية محتاجون الى الدعوة الى حركة تصحيحية بنيوية، ذهنية، حركية في كل الاحزاب للارتفاع الى وطنية كاملة غير طائفية. اذا كان لا بد من احزاب عقائدية فينبغي ان تنطلق من مبدأ نهائية لبنان وطناً وما سمي الغاء الطائفية السياسية وهذه يستحيل تحقيقها بلا تجاوز الطائفية برمتها ذهناً وعيشاً. المنطلق بأدلوجة وبلا أدلوجة ان يكون عندك وطن قائم بنفسه. أنا أفهم انه لما كان الوطن كله مهدداً في بدايات الثلاثينات كنا في حاجة الى ايديولوجيات تحرره من الاستعمار وتبنيه. كما أفهم ان من جاء من تراث أوروبا التي قادتها الثورة الفرنسية يحتاج الى ان يكون من اليمين أو اليسار. ولكنا نحن لم نأت من الاختبار الاوروبي وماذا يعني اليوم اليمين أو اليسار؟ ما الفرق الحقيقي مثلا بين الحزب الاشتراكي في فرنسا والحكم المسمى يمينيا فيها؟ الاحزاب اليمينية الاوروبية غير المتطرفة أو غير الشوفينية ليس فيها أثر فاشي. واليسار كثيراً ما كان قوميا (الشيوعية الحالية في روسيا قومية). لقد تغيرت الدلالات بحيث لا تعني هذه المصطلحات شيئا في عهد العولمة وانتظام الكل فيها لئلا نكون نحن في لبنان كالذاهبين الى الحج بعدما عاد منه الحجاج.

نحن ليس علينا أن نقلد أو ننسخ بريطانيا التي لم ينشأ من صراع ايديولوجي حقيقي فيها حزب المحافظين وحزب العمال فيها. أميركا أقامت ديموقراطيين وجمهوريين وليس أحد – ما عدا علماء السياسة واعضاء الكونغرس – يعرف الفرق بينهما. أظن ان القول بالتعددية الحزبية الى ما شاء الله قول فرنسي عاشت عليه الجمهورية الرابعة وخنقها كما كان يزعم ديغول. ونحن جمهوريتنا الثانية على صورة الجمهورية الرابعة عندهم.

الانحزاب لا ينشأ هكذا بقرار رفاق يجتمعون في غرفة يكتبون فيها بيانا ونظاما. تنشأ من ألم ودراسة موضوعية لواقع البلد. الحزب الحقيقي براغمي فيه كلام سياسي واقتصادي بما يقود بدءاً من الموجود الى تحسين الموجود. الحياة السياسية في العالم الاول تقوم خياراتها على دراسات موضوعية لا على شعارات. اما نحن فلا نزال في معظم دوائرنا الحزبية في نطاق الخطابية والرومنسية. نحن ليس عندنا صناعة سياسية بالمعنى الحديث ما خلا بعض الاوساط الجامعية.

لا يكفي ان نأتي بمبادىء اولية. ينبغي ان نثبت خياراتنا في كل نطاق وفي ارتباط كل مواقفنا. ان لم تصبح السياسة والاقتصاد والاجتماع علوما مترابطة متكاملة صعودا من الواقع اللبناني ودراسة للطبائع اللبنانية لا نكون على شيء. من تأمل احوالنا ومعاشنا نأتي الى الخيارات وذلك بطريقة موضوعية شاملة لطوائفنا ومناطقنا وتاريخنا وتخطيط مصيرنا. الموضوعية لا تنفي المرونة ولا النظرة الانسانية ولا تفرض الغاء الحس بالطوائف ولكنها تحتوي هذا الحس وتتجاوزه في آن. النشاط السياسي يفترض تجريداً كبيراً وطهارة كبيرة. وهذا جهد حضاري يستلزم وقتا ونسكا ومعرفة. بكلام بسيط يجب الخروج من عقلية العالم الثالث الى المدنية الكبرى فنكون فيها مع ابقائنا خصوصياتنا وأذواقنا الروحية والشعورية وتراثنا.

* * *

ان نظام الاحزاب كعقائديات نازلة من فوق يدمر البلد. اليوم يوم تيارات أو كتل أو قوى ضاغطة كثيرة المرونة. الحزب العقائدي يعتنقه انصاره اعتناق المؤمن لدينه. دليل ذلك مهما قال الحزبيون ان الحزب يستغرق الوقت والقلب ويقدم رؤية كونية. الاحزاب العقائدية في واقعها المعيش كيانيا كانت بديلا من الايمان، دينا يطلع "من الارض الى السماء" وهذا قيل. الديموقراطية غير ممكنة ان لازمتها عقيدة سياسية اخرى لان الديموقراطية هي المحتوى وليست فقط تمريناً سياسياً.

السياسة ليست علماً من العلوم الدقيقة. هي علاج. ولهذا عندما تتبنى كتلة فلسفة المطلق السياسي فانها تحمل طاقة الحرب الاهلية أو القمع عند وصولها الى الحكم. ليس من مطلق الاّ الايمان بالله. على الارض كل شيء قابل للنقاش لان شؤون الارض مركبة وعرضة للتغير. في شؤون الحكم المقاربات مفتوحة، متعددة. الحقيقة الوحيدة في هذا المضمار هي القيم والطهارة الشخصية. لا أجد مبدأ واحداً في السياسة الواقعية (ما خلا الاخلاق) غير قابل للبحث. السيادة الوطنية من حيث هي تحقيق خاضعة لغير تفسير (ما عدا التعامل والعدو). الاوروبيون يناقشون ما اذا كانت العملة الموحدة وأشياء اخرى تنتقص من السيادة.

جئت بكل هذا لاقول ان تداول السلطة يعني انك وان آمنت بعلاجك فلا تنكر امكان علاج آخر أو بديل. ان ذهبت ان في الحياة السياسية حقيقة نهائية فلا بد لك ان تقتل الآخر قبل ان يبلغ الحكم. الحوار وتغيير اللاعبين هو الاسلوب السياسي الوحيد الذي يجعلك تقبل الآخر والتنازل عن الحكم له. السياسة لعبة كبيرة راقية يقوم بها طاهرون يؤمنون بمحدودية فهمهم. السياسي كالطبيب يفحص. يعالج، يؤمن بوصفته الى حين الشفاء. لذلك يقبل ان يجتمع الى اطباء حول سرير المريض للتشاور.

نبدأ بالحق، بالنقاء، بعلم كبير في شؤون الارض. اما المعالجة ففيها اجتهادات وخفة روح وقبول للآخر وهذه كلها فن. أجل فن مرتكز على موهبة روحية. الفن يجمع اصحاب الذوق الواحد كتلة. والتكتل ليس فيه، ضرورة، تصادم. فيه حماسة وهي استباق الخيرات.

المطران جورج خضر